المنهجية البحثية العلمية إلي أين ؟

الاستاذ الدكتور علي قابوسة
مدير مخبر الاقتصاد السياسي PEDAA
جامعة الوادي الجزائر

ما جعلني اكتب هذا المقال هو جدل بيني وبين صديق لي حول علم المنهجية،هذا الصديق من الشقيقة تونس درسنا مع بعضنا في مرحلة الماجستير بليبيا ، ثم شد الرحال إلى باريس حيث تحصل من هناك على شهادة الدكتوراه وهو الآن أستاذ بأحد الجامعات الباريسية.

الذي اعرفه عن صديقي منذ فترة حول وجهة نظره اتجاه علم المنهجية تتفق مع وجهة نظري، ولكن بعد الغياب الطويل هنا في باريس اختلفت، وعليه كتبت هذا المقال.

كثيرا ما يسال الطالب نفسه العديد من الأسئلة المحيرة حول موقعه من البحث العلمي ومدى ملائمة شخصيته للبحث الذي سوف يقوم به ،وقدرته على تحمل مشاق ذلك العمل الذي يكلفه الكثير من الجهد والعناء ، وقد يضطر ذلك الإنسان إلى تقديم جزء من تلك الأسئلة لزملائه واقرأنه من البحاث ، وقد يتجرا ويسال بعض أساتذته المقربين منه ، والذين يثق فيهم لكي يسترشد بهم ويبعد هاجس الخوف عن نفسه ،وهو يقصد في ذلك تحميلهم جزء من المسؤولية الملقاة على عاتقه.

ومن المعتاد أن تكون عبارة **كيف ابد، وكيف انتهي** ،أكثر العبارات إثارة وكما يقال لكل بداية نهاية الا انه لا توجد للبحث العلمي نهاية .

فكلما ينتهي باحث من عمله يشعر بأنه قد وضع قدمه على بداية الطريق ، ولن يهدا له بال بتحقيق النتائج المرجوة ،فكل خطوة هي بداية لعدد كبير من الخطوات ،ومهما أوتي من مقدرة وقوة ورصانة لا يستطيع أن يقول أنني انتهيت من البحث، الا من ضاقت عليه الطريق ، ولا يستطيع الاستمرار،ووصل إلى مرحلة العجز.

يعتمد البحث العلمي على عدد من الخطوات الإجرائية التي يقوم بها كل من يفكر في البحث ،وهذه الخطوات تعبر عن نفسها عند كل إجراء،فكل خطوة تحتاج إلى عدد من الإجراءات المهمة التي تعبر عن الجدية في العمل،وعلى سبيل المثال خطوة الاستعداد للبحث العلمي تحتاج إلى عدد من الإجراءات و من أهمها التأهيل أو ما يعبر عنها بالمستوي العلمي ،أي أن كل بحث علمي يحتاج إلى مستوى من الإدراك والفهم والقدرة والاستطاعة التي تؤهله لذلك العمل، ويمكن من خلالها أن يباشر البحث العلمي.

يشكل البحث العلمي رحلة قافلة تسير نحو المجهول أو ما لا نهاية ينضم إليها هواة ،وينفصل عنها الرواد ،ولن يستطيع احد من البشر- إيقافها لأنهم زائلون،فمن يجد في نفسه الكفاءة يمكن أن يكون فيها،ومن لم يستطيع فعليه بالمشاهدة "وما أوتيتم من العلم الا قليل " صدق الله العظيم،

اسأل نفسي أولا،ثم أسال الآخرين. مناهج البحث العلمي إلى أين ؟

نحن جميعا نتطلع إلى البحث العلمي في مختلف مناشط الحياة وإدراكها، وهذا نابع من الفطرة التي أوجدها الله فينا من اجل البقاء، وحملنا مسئولية ذلك،وكما قال احد السابقين: "أنا أفكر أنا موجود"، وأنا بدوري أقول يجب على كل إنسان قادر أن يفكر في الدراسات ما بعد التدرج أو دراسات عليا لابد أن يضع في اعتباره ذلك السؤال الذي يقول مناهج البحث العلمي ألي أين ؟

سؤال محير لدى الجميع ،والذي يحير أكثر هو تنوع الإجابات وردود الفعل، فمن خلال اقتحام مجتمع البحث العلمي وجدنا الدعوة إلى تخصيص المناهج، واعتبار كل نشاط وحركة وفعل له ردود خاصة به يتميز بها عن غيره، وقد يشترك في بعض المظاهر القريبة، ولكنه دائما يتميز بالخصوصية التي تفصله عن الباقي، ومن الصعوبة بمكان إقناع هؤلاء الدعاة،وتصل درجة تشبثهم العامة،والتقليل من أهميتها للمتلقين.

لقد اعتبر الكثير من الزملاء مسؤولية مناهج البحث العلمي مسؤولية جماعية يشترك فيها جميع الأساتذة المكلفين بالتدريس في التعليم العالي ، وهي أمانة علمية تنال كل التقدير والاحترام من قبل القائمين عليها وهذا التقدير والاحترام ملموس من خلال المتلقين الذين يقومون بعرض أسئلتهم على هؤلاء الأساتذة دون تحديد لتخصصاتهم،

وختاما أقول. تحقق مادة المنهجية في كل العلوم المختلفة إجابات مناسبة لكل الباحثين من الأسئلة المتداولة وخصوصا عند المبتدئين "كيف تكتب بحثا""how to write a thesis" ، وأحيانا يقال "كيف أبدا،وكيف انتهي.

ففهم دقيق لمناهج البحث يفتح الطريق أمام الباحثين والكتاب من اجل أداء مهمتهم على إكمال وجه كل حسب تخصصه. فمقررات مناهج البحث مرشد وموجة ومعين على القراءة والدراسة والبحث ثم الكتابة، وهو المنارة التي يسترشد بها الباحث ليقدم عملا متكاملا متناسقا يتوافق وقدراه العلمية المتوفرة،وجهده الذي يستطيع بذلة ليشعر الآخرين بوجوده إلى جانبهم ،فالخطوات التي يتضمنها هذا المقرر توصل الباحث إلى بر الأمان عندما يحسن فهمها واستخدامها،ويحقق مقرر مناهج البحث في كل مجال من مجالات المعرفة قدرات يتزود بها الباحث لمعالجة الكثير من الموضوعات التي تعرض إمامه أو يفكر في معالجتها من اجل إعداد بحث أو أطروحة علمية تتوفر فيها معظم شروط البحث العلمي في مجال تخصصه،فيمكنه هذا المقرر من فهم القواعد الأساسية للكتابة، والتوجيهات والتنبيهات التي يحتاجها في الوقت المناسب.